مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مَجَلَّةٌ - إِسْلَامِيَّةٌ - ثَقَافِيَّةٌ - جَامِعَةٌ - مُحْكَمَةٌ

تَصْدُرُ سَنَوِيًّا عَنْ

كُلِّيَّةِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون

لسنة 1439 – 1440 الهجرية الموافق: 2017 – 2018 الميلادية

الشَّيخ إسماعيل الجيطالي
من أعلام القرن الثَّامن الهجري

أ.د. محمّد مَسعُود جبران
كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا

الشيخ الإمام أبو طاهر إسماعيل الجيطالي[1] النفوسي[2]، عَلَم من أعلام ليبيا، والغرب الإسلامي، وإمام من أئمَّة المذهب الإباضي السني[3] وفقهائه الكُبار، ومن العُلماء العاملين الذين ارتفعت لهم في القرن الثَّامن الهِجري،

(1) ويُكتب في بعض المصادر والمراجع: الجيطالي، تُراجع ترجمته وأخباره في المظان المذكورة في هذا البحث وفي غيره.

(2) النفوسي نِسْبة إلى نفوسة: قبيلة لها باع طويل في نَشْر المذهب الإباضي، قال الإمام عبد الوهاب: «إنَّ هذا الدِّين -يقصد المذهب الإباضي- قد قام بسيوف نفوسة، وأموال مزاته»، ونفوسة من البربر البتر.

(3) المذهب الإباضي، مَذْهب سني إسلامي، يُنْسب إلى الفَقيه عبد اللَّه بن إباض، وصاحب المذهب في الأصل الفَقيه المُحدِّث، وقد دخل هذا المذهب إلى طرابلس الغرب ومُدُنها، وبخاصَّة الجبل الغربي جبل نفوسة في القرن الثاني الهجري، وهو التاريخ نفسه الذي دخل فيه إليها المذهب المالكي على يد الفَقيه المُحدِّث علي بن زياد، وأتباع الإباضيَّة ومؤرِّخوها يؤكِّدون أنَّ الإباضية ليسوا فرقة من فِرَق الخَوارج، ولهم أعلام مشاهير في العِلْم والجِهَاد والحُكم في القديم والحديث، ومن أهم الكُتب التي يُمكن الرجوع إليها في هذا الصَّدد كتاب **الإباضيَّة في موكب التاريخ والإباضيَّة بين الفرق الإسلاميَّة والإباضيَّة دراسة مركَّزة في أُصولهم** للشيخ علي بن يحيى معمر، **ودراسات عن الإباضيَّة** للشهيد الدكتور عمرو خليفة النامي، وكتاب **الإباضيَّة في مِيدان الحقّ** للأُستاذ ناصر المسقري، وكتاب **أضواء إسلاميَّة على المعالم الإباضيَّة** للشيخ بكير بن سعيد اعوشت، و**نشأة الحَرَكة الإباضيَّة** للدكتور عوض خليفات، **ومدخل إلى دراسة الإباضية وعقيدتها** لـ بيير كوبرلي، **والحِوار الإباضي المالكي** لصولة الغدامسي وأحمد الشماخي.

الرَّابع المِيلادي بِفَضْل عُلومهم وآثارهم ومواقفهم محاسن ومفاخر ورايات.

ومن العَجَب العُجَاب حقًّا، بل ومن المُفارقة المُستغربة أنَّ هذا القرن وما تلاه من القُرون كان الحِقبة التاريخيَّة، بل المُنْعرج الخطير فيها الذي آذنت فيه شمس الحَضَارة الإسلاميَّة الزاهرة المُشْرقة بالأُفول، كما بدأ إشعاعها المُضيء المُتألِّق في الشُّروع بالمَغِيب وراء الأُفق، حيث شهد أهله مَظَاهر التقَهْقر السياسي، والانهيار المَدَني والعَسْكري بجلاء، في الوقت الذي شَهِدوا فيه أيضاً في شيء من التقابل ظُهور حَرَكة فِكريَّة مُزدهرة، وحياة عَقْليَّة وذهنيَّة قويَّة خَصْبة، كما رأوا، ورأى من جاء بعدهم من الكُتَّاب والمؤرخين بروز قامات عقليَّة سامقة في آفاق العِلْم والأدب، تجلَّت نُجومها في سَمَاء مَشْرق البلاد الإسلاميَّة ومَغْربها، فقد ظهر من أعلام الحَرَكة الفِكْريَّة في مُستوياتها المَعْرفيَّة المُختلفة في المشرق مشاهير من أمثال: ابن فضل اللَّه العمري، ومحيي الدِّين بن عبد الظاهر، والقلقشندي وكمال بن الهمام وابن دقيق العيد، وابن نباتة السعدي، وبرهان الدِّين القيراطي.

كما ظهر فيه من أعلام الحَرَكة الفِكْريَّة والأدبيَّة في الغَرَب الإسلامي الذي كان يَشْهد هو الآخر الانهيار الحَضَاري والعَسْكري مشاهير من أمثال: محمد لِسان الدِّين بن الخطيب، وعبد الرحمن بن خلدون وأبي الحسن النباهي وأبي موسى الطرابلسي، وتلميذه مُترجمنا الجيطالي ومحمد بن علي الخروبي وغيرهم.

فقد كان العَلَّامة الفَقيه الصُّوفي الشيخ إسماعيل الجيطالي من أعلام ليبيا، نُخَصِّص هذا البحث لدراسته، ودراسة آثاره، ومناحي القُوَّة والعَظَمة في مواقفه الحياتيَّة، وأيضاً في إبداعاته التأليفيَّة، من أعلام هذا الأُفق البارزين في القرن الثامن الهِجري؛ إذ وُصِف بين مقامات أعلامه بأنَّه حُجَّة الإسلام في الغَرب الإسلامي، وبأنَّه الشيخ الحافظ العَالم، العامل المُحافظ، ذكره أحمد ابن سعيد الشماخي في كتابه السِّير، فقال إنَّه: «كان شيخًا حافظًا، وعالمًا عاملًا مُحافظًا»[1]، وحلَّاه صاحب الطَّبقات بِحُجَّة الإسلام، حيث قال: «هو

(1) السِّير، للشماخي، 2/ 195.

حُجَّة الإسلام، الإمام أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي»[1] وَوَصَفَه الشيخ محمد أبو راس في كتابه «**مؤنس الأحبة في تاريخ جربة**» بالإمام الورع، مُستجاب الدَّعوة[2]، وحلَّاه من العُلماء والباحثين المُحدثين العالم الباحث الشيخ علي يحيى معمر[3] بقوله: «فيلسوف الإسلام»[4] وبوَصْفه أنَّه «عِمْلاق من عَمَالقة الفِكْر الإسلامي في ذلك العَصْر»[5] يعني عَمَالقة الفِكْر الإسلامي في القرن الثَّامن الهِجري. كما حلَّاه العالم الجزائري المؤرخ الشيخ محمد علي دبوز: «غزالي المغرب»[6] وهي الصِّفة المُقابلة لحُجَّة الإسلام ضرورة أنَّ أبا محمد الغزالي كان يُسمَّى حُجَّة الإسلام.

وقال الشيخ سالم بن حمود السيابي العماني في وصف هذا العَلَم الليبي، وتقدير مَكَانته العِلْميَّة: «الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي، الإمام البارع، أحد أعلام الفِكْر العربي، وأكبر فطاحل الفِقه في الإسلام، وأكبر الأئمة الأعلام في زمانه»[7].

ترجمته وسيرة حياته:

نبتدئ هذه الترجمة للشيخ العَالِم العَامِل إسماعيل الجيطالي بذكر ما وصلنا من أسماء أوليته ونَسَبه، فنقول: يُكنى هذا العالم الجليل بأبي طاهر، ولعلَّ الكُنية دالَّة على اسم أكبر أولاده طاهر أمَّا اسمه فإسماعيل، واسم والده موسى الجيطالي[8]، نِسْبةً على قَرْيته والقَرْية التي وُلد فيها مُترجمنا (جيطال)، والتي حَدَّد بعض معالمها قَلَم الشيخ الأديب علي يحيى معمر بقوله: «إنَّ جيطال

(1) م.ن.، 2/ 195-198.
(2) مؤنس الأحبة في تاريخ جربة.
(3) له ترجمة ضِمن تراجم أعلام هذا الكتاب.
(4) **الإباضية في موكب التاريخ**، 1: 350.
(5) م.ن.، الجزء والصفحة.
(6) **تاريخ المغرب الكبير**، 3: 390.
(7) في تقديمه الطبعة العمانية سنة (1429هـ/ 2008م).
(8) **السِّير**، للشماخي، 2: 192، **الإباضية في موكب التاريخ**، 2: 350، **معجم أعلام الإباضية**، 2: 112.

مدينة فسيحة تقع بين (أمسين) و(اينر) على ربوتين مُتقابلتين، تُحيط بها من جميع الجِهات غابات كثيفة من الزيتون والتِّين»[1].

فهي على ذلك الوصف قَرْية، بل بلدة زراعيَّة، تُحيط بها غروس الزيتون والتِّين، ويكتسي بجمالها المكتسب من موقعها الرائع الواقع على ربوتين مُتقابلتين من رُبى جبل نفوسة، أو الجبل الغربي الأشم، ومن الغريب أنْ يغفل الشيخ الطاهر الزاوي ذكر هذه المدينة في كتابه **معجم البلدان اللِّيبية** وهي من المُدن الرائعة التي أنجبت أعلامًا في طليعتهم مُترجمنا أبو طاهر إسماعيل الجيطالي الذي أثنى العُلماء على عِلْمه ومواقفه وتآليفه، في هذا المُحيط القَروي الجبلي البديع المَكْسو بالغابات والأشجار المُثمرة وغير المُثمرة، والأحراش المُزدانة بالأعشاب والغُروس.

ولد الشيخ إسماعيل الجيطالي في تاريخ مجهول نذهب إلى أنَّه كان في النِّصف الأخير من القرن السَّابع الهجري في مُحيط أُسرته التي كانت على الراجح من الأُسر الجيطالية المشهورة والميسورة، ذات السَّعة بما كانت تملكه من الأراضي الزِّراعيَّة، وبما كانت تقوم به من التجارة والصفق، وهي المُكتسبات المادِّية التي عوَّل مُترجمنا فيما بعد على تثميرها وإنمائها، فقد أخبرتنا سِيرة الشيخ الجيطالي في مساق الحديث عن حياته التعليميَّة بأنَّه اختلف في بدايتها على كتّاب قريته أو مدينته (جيطال) فَشَرع مثل أترابه ولِدَاته في حِفظ كتاب اللَّه العزيز، وأنَّه قد تَمكَّن من هذا الحِفظ على صِغَر سِنِّه، ونعومة أظافره، بفضل مَلَكته الحافظة اللَّاقطة التي اشتهر بها بين أقرانه وأترابه في الصِّغر، كما أدركها فيه طُلَّابه ومُريدوه في الكبر[2].

ثم انتظم في حَلقات الدُّروس، وحلق مجالس العِلْم ودولاته، ومن أسف أنَّ التاريخ لم يخبرنا إلَّا بقِلَّة عن شيوخه الذين أخذ عنهم الكُتب والعِلْم في طَوْر ما بعد الكتّاب، والراجح عندي أنَّ طائفة من أفراد أسرته أهله

(1) **الإباضية في موكب التاريخ**، الحلقة الثَّانية، 2: 107.
(2) كتاب **السير** للشماخي، 2: 196.

-وكانوا من أهل اليَسار- عُدُّوا من أشياخه في هذه المَرْحلة المَجْهولة من حياته ومن المؤثِّرين في تكوينه العلمي.

على أنَّ الذي تجتمع عليه كلمة مؤرِّخي إسماعيل الجيطالي ودارسيه -مع إغفالهم لذلك الطّور التحصيلي الذي أخذ فيه العلم عن طائفة من عُلماء أُسرته الذين رجَّحنا القول إنَّهم كانوا من شيوخه المجهولين الذين أفادوه ضِمن شُيوخ قبيلته[1]، أنَّ شيخه الأبرز الذي كان له دوره البالغ في تكوينه، وفي الرُّقي بِمَداركه إنَّما هو الشيخ أبو موسى عيسى بن عيسى الطرمسي أو الطرميسي[2]، المُتوفَّى عام (722هـ/ 1322م)[3]، الذي ذكر المؤرخون والإخباريون من أعماله العِلْميَّة في الجبل الغربي، أنَّه كان صاحب مَدْرسة عِلْميَّة في جبل نفوسة، وهي التي ارتادها واختلف إليها، بل تكون بها طائفة من تلاميذه وطُلَّابه المُبرزين، يأتي مُترجمنا إسماعيل الجيطالي في طَليعتهم.

والذي يظهر من تَرْجمة الشيخ أبي موسى الطرميسي شيخ مُترجمنا، أنَّه كان -حَسب الرِّوايات المُتناقلة في كُتب التاريخ- من العُلماء الصَّالحين الذين أعطوا حياتهم للعِلْم والتعليم، ومن ذوي النزعة الدَّعويَّة والإصلاحيَّة في الجبل الغربي في النِّصف الأخير من القَرْن السابع الهِجري، وأنَّه تلقَّى عُلومه وتربيته عن العالم المشهور أبي زكريا ابن وجدليش[4]، وهو العالم النّفوسي الذي كان مِمَّن تفرَّغوا للإقراء والتعليم والإصلاح، ونَشْر المذهب الإباضي في الجبل الغربي، فبالإضافة إلى ما عُرف به الشيخ عيسى الطرميسي[5] من نَشْر

(1) قال الشيخ أحمد بن سعيد الشماخي في كتابه السِّير مُتحدثاً عنه «أخذ العلم عن الشيخ يحيى ابن وجدليش وعلَّمه لغيره، واشتهر بالورع والعِلْم والتعليم، ولم يتزوَّج قط لاشتغاله بالعِلْم، وتحوَّل إلى مزقورة عام ثمانٍ وسبعمئة، وحجَّ عام أربعة وسبعمائة، وكان لونه مائلًا إلى البياض، قليل الشعر في جَسَده، مُستجاب الدُّعاء، ساد جماعة مِمَّن أخذ عنه، وتوفِّي عام اثنين وعشرين بعد سبعمائة، وحبَّس ما خلَّف من الكتب على طلبة نفوسة وفُقهائها».

(2) وجدته في بعض المصادر والمراجع يُكتب بذينك الشكلين.

(3) كتاب **السير**، 2: 193.

(4) كتاب **السير** للشماخي، 2: 190.

(5) طرميسة: مدينة من مُدن نفوسة بالجبل الغربي، قُرب مدينة جادو، وإليها يُنسب الشيخ أبو موسى عيسى شيخ الجيطالي وأصحابه.

العلم والتوجيه والدَّعوة أَسَّس عددًا من منارات العِلْم في مُدُن الجبل الغربي وَقُرَاهُ تقرُّبًا من اللَّه؛ مثل مدرسته الواقعة بين بلدة طرميسة ومدينة جادو[1]، كما أسَّس وأشرف على مدارسه الأُخرى في (مزغورة)[2]، و(يفرن)[3]، و(أمسين)[4] وغيرها، وأوقف عليها مكتبته ليستفيد منها الشُّيوخ وطَلَبة العِلْم؛ يَسْعى إلى نَشْر المذهب الإباضي، باعتباره مذهبًا فقهيًّا إسلاميًّا مُتحدًا مع غيره من المذاهب الفِقهيَّة الإسلاميَّة الأُخرى في الأُصول، وإن اختلفت معها في بعض الفُروع[5]، وقد عمل الجيطالي على نَشْر ذلك كما سيتَّضح في سَمَاحة بعيدة عن التعصُّب المذهبي الضيِّق المَقِيت.

وقد تَلقَّى الشيخ أبو طاهر إسماعيل الجيطالي في مدرسة شيخه الطرميسي المذكورة، وأيضًا في فُروعها المُلحقة الكثير من عُلومه اللُّغويَّة وفهومه الشَّرعية الدَّالة على هذا التوجُّه السليم، والدائرة في هذا الفَهم الصَّحيح، والإدراك الفسيح لمقاصد الإسلام، والمَعْرفة من القاعدة الفقهيَّة المُتمثِّلة في أنَّ «خير الأُمَّة في اختلاف الأئمة» أي: اختلافهم في الفُروع، ومن قاعدة التعاون بين المسلمين في نُصْرة الحَقّ المُبين والدِّين المَتين، التي هي من أهم مقاصد الشريعة الإسلاميَّة المبنيَّة على الآية القرآنية: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[6].

وقد كان من أشهر تلاميذ الشيخ عيسى الطرمسي أو الطرميسي في هذه المَدْرسة الإسلاميَّة التي أَسَّسها هو مُترجمنا الإمام الجيطالي، موضوع البحث، وزملاؤه في التحصيل فيها من طَلَبة العِلْم، أمثال الشيوخ: إبراهيم بن

(1) جادو: من مدن الجبل الغربي الكُبرى، يراجع كتاب: **معجم البلدان الليبية**، ص86.
(2) بلدة في الجبل الغربي.
(3) مدينة في الجبل الغربي معروفة بتاريخها وأعلامها.
(4) بلدة في الجبل الغربي المذكورة.
(5) يُراجع في ذلك كتاب: **الإباضية دراسة مركزة في أُصولهم ومدخل إلى دراسة الإباضية وعقيدتها والحوار الإباضي المالكي**.
(6) سورة آل عمران، من الآية: 19.

أبي يحيى الباروني[1]، وأبي زكريا بن أبي العز[2]، وأبي ساكن عامر بن علي الشماخي (ت 792هـ/ 1389م)[3]، ويدراسن الأزاخي (ت 732هـ/ 1331م)[4]، وجميعهم من أعلام ليبيا في العِلْم والثقافة والدِّين في جبل نفوسة في القرن الثَّامن الهجري[5]، وقد تلقَّى مُترجمنا أبو طاهر الجيطالي مع زملائه في التحصيل المذكورين وغيرهم عن شيخهم الطرميسي هذا الكثير من عُلُوم العربيَّة، ومن عُلُوم المقاصد، وكُتب الفِقه الإباضي وغيره[6]، من تآليف عُلماء الإسلام المدروسة والشائعة في معاهد العُلُوم الإسلاميَّة، وفي المدارس الإباضيَّة عندئذ ما غَذَّى به فكره، وأَثْرى به عُلُومه ومعرفته، نذكر من هذه الكُتب المُقرَّرة عهدئذ كتاب «**العدل والإنصاف**» للإمام أبي يعقوب الوارجلاني في ثلاثة أجزاء، وكتاب «**الإيضاح**» و«**الجامع الصحيح**» للإمام الربيع بن حبيب، و«**الدليل والبرهان**» للوارجلاني، و«**أصول الدِّين**» لتبغورين بن عيسى، و«**الموجز**» لأبي عمار عبد الكافي[7]، والذي يُستنتج من سِياق ترجمة مُترجمنا وأحوال زملائه في التحصيل، أنَّ شيخهم أبا موسى عيسى الطرميسي الذي تعهَّد تربيته وتربية زملائه وأقرانه في الأخذ والتلقِّي، قد غَذَّى فيهم جميعًا روح النِّقاش والحِوار، وقَوَّى في تربيتهم مَظْهر البحث والجدل وإدمان القراءة في كُتب المذهب، وفي كُتب

(1) تُراجع ترجمته في كتاب **السير** للشماخي.

(2) قال الشيخ الشماخي في كتاب **السير**، 2: 193: «تعلَّم العِلْم وعَلَّمه، وكان نسَّاخًا للكُتب، ولم يشغله العِلْم عن النَّسخ أو النَّسخ عن العِلْم، شرح الدعائم في سِفْرين».

(3) قال الشماخي في كتاب **السير**: «واسطة العقد، ومنتهى القصد، أخذ العِلْم من أبي موسى عيسى بن عيسى، وصاحب الشيخ أبا عزيز، وكان يؤثره على الأشياخ... وألَّف ديوانه» أي: كتابه الفِقهي.

(4) قال الشماخي: «أخذ العلم عن عمّنا عيسى، وصاحب عمّنا أبي عزيز، وحجَّ عام اثنين وثلاثين وسبعمائة، وفيها تُوفِّي على ما أظن».

(5) يُراجع في ذلك: كتاب **السير** للشماخي، و**معجم أعلام الإباضيَّة بين الفِرَق الإسلاميَّة، والإباضية في موكب التاريخ**.

(6) كتاب **السير** للشماخي، 2: 195.

(7) يراجع في ذلك كتاب **السير** للشماخي، و**الإباضية في موكب التاريخ**، لعلي يحيى معمر.

المذاهب والفِرَق الإسلاميَّة الأُخرى لبِناء جُسور التواصل والتآخي[1] يدلنا على هذا المَظْهر ما ذكره صديقه وقرينه في التحصيل عن هذا الشيخ الطرميسي، أعني الشيخ عامر الشماخي، المُتوفَّى عام (792هـ/ 1389م)[2]، فقد ذكر أنَّ الشيخ الجيطالي قد طَرَق باب بيته بعد صَلَاة العِشاء؛ أي: في العِشاء الآخر؛ فوجده عاكفًا على قراءة كتاب من الكتب، فتابع معه القراءة، ثم أخذا يتباحثان في مسائله، وفي مسائل عِلْميَّة أُخرى، واستغرقا الوقت في ذلك، إلى أن تنفَّس الصَّباح[3].

وهذا الذي وَصَفَه الشماخي من سَهَر مُترجمنا وصديقه العالم الجيطالي في البحث والنِّقاش طَوال اللَّيل، يدلنا على حُبِّه وحُبِّ صاحبه للعِلْم والبحث، غرسه فيهما شيخهما الطرميسي، وهو صُورة مُشرقة من صُور صَبْر طُلَّاب العِلْم المُخلصين، ودأبهم في أخذ العِلْم بقُوَّة، وتحصيلهم له بكدٍّ وجدٍّ.

وكما غَرَس الشيخ الطرميسي في تلميذيْه المذكوريْن بل في تلاميذه وطُلَّابه حُبّ العِلم، وإدامة البحث، والصَّبر على الدَّرس والنِّقاش في مسائله المُتنوِّعة، التي زوَّدتهم فيما بعد بأرصدة من المعرفة، غرس فيهم أيضًا حُبّ الكتابة والتدوين ومزية التحرير والتحبير التي انتهت بهم إلى مَنْزلة في التأليف والتصنيف.

فقد كان الشيخ الجيطالي وجُل زملائه في التلقِّي والتحصيل من شيخهم الطرميسي يتبارون في الكتابة والتأليف، فكانت لهم جميعًا أو لجُلِّهم كُتب وآثار وأخبار، وهي التي دَعَت الشيخ الفاضل علي يحيى معمر[4] -رحمه الله تعالى- إلى النَّظر إلى مدرسة الشيخ الطرميسي على أنها «أعظم المدارس بنفوسة، وجَّهت طُلَّابها إلى الاشتغال بفن التأليف»[5].

(1) **الإباضية في موكب التاريخ**، 1: 350.
(2) **السير**، 2: 198، **الإباضية في موكب التاريخ**، 1: 353.
(3) كتاب **السير** للشماخي، 2/ 197-198.
(4) ترجمنا له ترجمة وافية في هذا الكتاب.
(5) **الإباضية في موكب التاريخ**، 1/ 105.

كذلك أخبرنا مؤرِّخنا الجيطالي أيضًا عن صُحبته لعالم آخر؛ من أترابه من عُلماء جبل نفوسة هو الشيخ أبو عزيز[1]، وذكروا الجيطالي، صحبه زمانًا، وما من شكّ في أنَّه استفاد من هذا الشيخ العَالِم خِلال الزَّمان الذي لَقِيه فيه الكثير من عِلْمه وفَضْله، ومن مَعْرفته وتوجيهه كما استفاد أيضًا من صُحبة صديقه الشماخي المذكور.

وممَّا ذكره المؤرِّخون والإخباريُّون عن طبيعة تكوين الشيخ الجيطالي في مَرْحلة التحصيل التي تتلْمذ فيها عن شيخيه المذكورين، وعن أصدقائه وعلى بعض أفراد أُسرته من عُلماء -كما رجحنا- أنَّه اتَّسم بحافظة وذاكرة مُسْعفتين، فكان -على ما ذكره زميله في التحصيل الشيخ عامر الشماخي يَحْفظ **ديوان الدعائم** لابن النَّظر، و**مقامات الحريري** و**الأشعار السِّتة**، وكتاب **العدل والإنصاف** للوارجلاني، وجمل الزَّجَّاجي[2].

ومن طريف ما أخبر به مُترجموه في حِرْص الشيخ الجيطالي في مهر حِفظه الذي عُرف به، ما رواه عنه بعض الأشياخ من أنَّه اتَّخذ تلك المحفوظات المذكورة أورادًا قسمها على أيام الأُسبوع، يعرضها ويستذكرها خَشية نِسيانها، واتَّخذ اليوم الأخير مِنْها لِتِلاوة سُوَر القُرآن الكريم ودراسته، لتكون الخِتْمة ليلة الجمعة[3]، وممَّا أخبروا به أنَّه كان من صديقه الشيخ عامر الشماخي صاحب كتاب «الإيضاح» كفرسي رهان في المُذاكرة والدَّرس وهُما من خرِّيجي مدرسة شيخهما أبي موسى عيسى الطرميسي، ويبدو أنَّ مُترجمنا الجيطالي ظلَّ على ذلك الحِرْص والشَّغف بالأخذ والتحصيل والحِفْظ، والنِّقاش في المسائل العِلْميَّة والحِوار فيها مع شيوخه وإخراجه في التحصيل العِلْمي طَوال مَرْحلة الدِّراسة والتلقِّي، لا بل إلى أُخريات حياته.

(1) تُراجع أخباره وآثاره في كتاب **السير** لأحمد بن سعيد الشماخي، وفي **الإباضية في موكب التاريخ**.

(2) **السير** للشماخي، 2: 196.

(3) كتاب **السير**، 2: 196.

الطَّوْر العَمَلي في حياته:

لقد أتبع ذلك الطَّوْر التكويني من حياة الشيخ أبي طاهر إسماعيل الجيطالي طَوْر عَمَلي عُرف به في حياته العاملة الحافلة التي شهدها الجبل الغربي وقُراه في النِّصف الأخير من القرن السَّابع، والنِّصف الأوَّل من الثَّامن الهجريين، ويُمكننا التعرُّف على طبائع أدواره العَمَلِيَّة البارزة في هذا الطَّوْر من خِلال الحديث عن هذه المَحَاور:

1 - قيامه بالتدريس والإقراء.

2 - قيامه بواجب الدَّعوة والتوجيه.

3 - قيامه بتبعات عمله في التجارة والزراعة.

4 - قيامه بالتأليف والتصنيف.

(1)

فما من ريب في أنَّ الشيخ الجيطالي قد شَرَع في بِداية هذا الطَّوْر العَمَلي من حَياته، بعد انتهاء طَوْره الأوَّل الذي قَضَاه في التحصيل العِلْمي والتكوين المَعْرفي -في القيام بمُهمَّة التدريس في تلك الزوايا والمساجد التي كان قد أخذ فيها عُلومه في الطَّوْر الأوَّل[1]، وبخاصَّة في جامع قريته بجيطال، وفي مَدْرسة شيخه الطرميسي قرب طرميس وفي زواياه الأُخرى في جادو ومزغورة وأمسين ويفرن[2].

وما من ريب أيضًا في أنَّ أشياخه الذين أخذ عنهم العِلْم من رجال أُسرته، وعُلماء بلدته الآخرين، ومنهم الشيخ أبو موسى عيسى الطرميسي قد كلَّفوه بهذا الواجب، وأوكلوا إليه مَهمَّة تعليم الطُّلَّاب الكُتب التي درسها، وأتقنها في عُلُوم العربيَّة، وعُلُوم مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، بل كُتب الفِقه الإباضي وأُصوله، فَمَضى الجيطالي في هذا العمل الإقرائي، بل العَمَل

(1) كتاب **السير**، 2: 196-197.

(2) **السير** للشماخي، 2: 195.

التعليمي التربوي، الذي انتفع به طَلَبة العِلْم في المساجد والزوايا التي أَمَّها، وأقام فيها؛ فقد درس في قُرى ومُدن الجبل الغربي مثل «فرسطاء» و«غريان» و«جيطال» و«مزغورة»[1] وأخيرًا درس في مَهْجره في جامع جربة الكبير لتونس[2] بعد أنْ رحل إلى تونس عَقب مِحْنة سِجْنه؛ فأخذ عنه طَلَبة العِلْم في تلك المعاهد العِلْميَّة في ليبيا، وفي تونس كتاب **جمل الزجاجي** وغيره من كتب النَّحو والصَّرف، وأقرأهم الأدب والبلاغة من خِلال دراسة مَقَامات أبي محمد قاسم الحريري، وأقرأهم من كُتب العُلُوم الشرعيَّة كتاب **الدعائم** لابن النَّظر العماني، والفِقه وأُصول الفِقه من كتاب **العَدْل والإنصاف** للوارجلاني، وغير ذلك من الكُتب التي جَرَى العمل بتدريسها في الجبل الغربي وفي جربة بتونس، وقد عُرِف عن الشيخ إسماعيل الجيطالي أنَّه كان يتطوَّع بالتدريس، وأنَّه كان كثير الترحال مثل شيخه الطرميسي، قال الأستاذ خضير بن بكير بابا واعمر: «كان أستاذًا زائرًا، يجوب القُرى، لا يتدفَّأ منه مضجعه، يُعلِّم من رغب، ويُحاور من عارضه من العُلماء والفُقهاء، وقد عمل على تبليغ رسالة العِلْم في كُلّ بلدة يحل بها إلى أنْ أدركته المنيَّة بالجامع الكبير بجربة»[3].

ومن العجيب في أمر الشيخ الجيطالي الذي أمضى في حَقْل التعليم والتدريس زمنًا غير قصير من عُمره، أنَّ الباحثين والدَّارسين لم يهتدوا إلى أسماء تلاميذه ومُريديه باستثناء من دلّ عليه الأُستاذ خضير بن بكير أعني الشيخ أبا أيوب الجيطالي الذي أخذ عن بَلَديّه إسماعيل الجيطالي العِلْم، ثم تابع أخذه عن شيخه المؤرِّخ العَالِم أبي ساكن عامر الشماخي[4] الذي ذكرنا أنَّه كان صديقًا للشيخ إسماعيل الجيطالي وزميلًا له في التحصيل العِلْمي عن شيخهما عيسى الطرميسي.

وممَّا ذكره مُترجمو مُترجمنا أبي طاهر الجيطالي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه كان يرى ويقول

(1) م.ن.، 2: 196-198.
(2) **تاريخ جزيرة جربة**، ص114، **الإباضية في موكب التاريخ**، 1: 350.
(3) **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص62.
(4) **السير** للشماخي، 2: 201، **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص71.

بالمذهب الاجتهادي الناص على أنَّه لا يجوز لمُعلِّم العِلْم أنْ يأخذ أجرًا عن إقرائه وتعليمه، بل عليه أنْ ينهض بهذا العمل تطوُّعًا واحتسابًا[1]، والحَقّ أنَّ هذا المذهب أحد مذهبين في هذه المَسْألة، والراجح عند الكثير من العُلماء القُدماء والمُحدثين القول إنَّ الأجرةَ لا تَدْفَعُ الأَجْرَ، وأنَّ المُعلِّم مثل غيره من العُلماء والعاملين الذين يُقدِّمون للحياة خدمات جليلة تُسوِّغ لهم أخذ المال الذي تقوم وتتقوَّم به حياتهم، وحياة أولادهم، ورحم الله الشاعر في قوله: (بسيط)

النـــاس لـــلـــنـــاس مـــن بـــدو وحـــاضـــرة

بـعـضٌ لـبـعـض وإن لـم يـشـعـروا خَـدَمُ

(2)

وممَّا يتَّصل بهذا الجانب العَمَلي الذي كان ينهض به الشيخ إسماعيل الجيطالي في التدريس والإقراء تطوُّعًا واحتسابًا، اعتمادًا على ما كان يجنيه من ريع الزراعة في أراضيه المُغلة في غابات الزيتون في بلدته جيطال[2]، واستثمار أمواله وأموال زوجته الشروسيَّة في التجارة[3] قيامه ضِمن هذا الجانب أو المَظْهر العَمَلي بواجب الدَّعوة إلى اللَّه، ونَشْر العقيدة والفتيا في قُرى الجبل التي كانت تُعاني أيامئذ -لعوامل مُتعدِّدة- التخلُّف والجهل بالدِّين الصحيح، دون أنْ يَطْلب على ذلك أجرًا، لأنَّه ابتغى بعمله التوجيهي وجْه اللَّه وحُسن قَبوله[4] امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[5].

وقد ساعد مُترجمنا الجيطالي في التوفيق في هذه المَهمَّة الدَّعويَّة في النواحي المُختلفة من مُدُن الجبل وقُراه، صدقُ إيمانه الذي سلَّم له به أهل

(1) **قناطر الخيرات**، تحقيق: عمرو النامي، 1: 155-156.
(2) **الإباضية في موكب التاريخ**، الحلقة الثانية، 2: 107.
(3) وصية الجيطالي «تذكرة النسيان، أمان حوادث الزمان».
(4) **قواعد الإسلام**، ز: 2.
(5) سورة فصلت، الآية: 33.

عَصْره، والذي عبَّر عنه بقوله في موقف امتحن فيه تصديه للباطل: «لا أُقيم ببلد لا أُقيم فيه الحَقَّ، ولا آمرُ ولا أنْهَى»[1]، كذلك ساعده على نَجَاحه القِيام بالدَّعوة إلى اللَّه وإلى دينه القَيِّم في أوساط جاهلة مُنحرفةٍ صدقُهُ وقُوَّةُ إيمانه، وشدةُ جُرأته، وصفاءُ تصوُّفه، وتحمُّلُه الظاهرُ في المواقف المُختلفة ما جرَّته عليه جُرأته في المُجاهرة بالحَقِّ من المحن والكوارث إذ كان -كما ذكرت المصادر والمراجع- «من أهل المُجاهدة والتَّقوى والإخلاص»[2] ومن الحقيق بالذِّكر هُنا أنَّ الشيخ أحمد بن سعيد الشماخي عُنِي كثيرًا في تَرْجمته للشيخ الجيطالي في كتاب «**السِّير**» بذكر كرامته، وحُسن قَبوله عند اللَّه بفضل توفيقه في الزهادة والتقوى وصَفَاء الباطن[3]، ومن أسباب نَجَاحه في هذا الجانب الدَّعوي في الدور العِلْمي من حياته، أعني مُجلِّي الصِّدق في الدَّعوة إلى اللَّه ببيان الحَلال والحَرام، والتفريق في أقواله وأفعاله بين مظاهر الحَقّ الصَّريح، وأشكال الباطل القبيح، ما عُرف به الفقيه المُتصوِّف إسماعيل الجيطالي من العِلْم الواسع الظاهر والباطن، الذي أخذه وتلقَّاه عن شُيوخه المُعْرِقين في عِلْم الحَقَائق، وعِلْم الرقائق، من الفَصَاحة والبيان، فقد أشرنا إلى تروِّيه من الأدب، وما اشتهر به في عَصْره من القُدرة على المَحَاجَّة، والتوفيق في الحِوار والمُجادلة، وما كان يرفده في كُلّ ذلك ما تميَّز به من قُوَّة الحِفظ للنظيم والنثير، وسَعَة الرِّواية، وَوَفْرة الشواهد التي كان يتمثل بها في إقرائه ووعظه وإرشاده ودَعْوته، وأيضًا في جُلّ مُصنَّفاته وآثاره العِلْميَّة التي سنأتي لعرض جُملة منها[4].

(3)

المحور الثالث، يتصل -كما أسلفنا- بقيامه بتبعات عمله الاقتصادي، فقد تواترت الأخبار على أن مترجمنا الشيخ إسماعيل الجيطالي عاش طوال

(1) كتاب **السير**، 2: 197.
(2) تُراجع المراجع المذكورة سلفاً.
(3) كتاب **السير**، 2: 196-197.
(4) يُراجع في ذلك كتاب **السير** للشماخي، 2: 196.

حياته حياة طبيعيَّة فقد كان من مظاهر حياته العِلْميَّة في هذا الطَّوْر بعد مرحلة التحصيل والتكوين أنْ تزوَّج سيدة فاضلة من «شروس» أنجب منها بعض أبنائه الذين كان منهم على الرَّاجح ولده «طاهر» الذي كان يُكنى به، فكان يُقال له: أبا طاهر إسماعيل، وقد خالف الجيطالي مذهب شيخه الطرميسي الذي عزف عن الزواج وآثر العُزوبيَّة، وذلك بتكوين هذه الأُسرة التي تضنّ المصادر والمراجع بِذِكْرِ أخبارها، إذ لم تَذْكر من أسماء أبنائه وبناته وأخبارهم شيئًا.

وقُصارى ما علمناه من أخبار أُسرته أنَّ مُترجمنا أبا طاهر الجيطالي كان حفيًّا بأُم أولاده، وهي -كما تقدَّم- امرأة من «شروس» حَرِص على إكرامها وتقديرها، بل أوصى -في وصيَّته- أنَّ لامرأته الشروسيَّة هذه «في ذمته سبعمائة درهم، غير الصَّدَاق، باعهم من كسبها، تأخرهم، وتحلّلها في جميع ما أكل من مالها، وقرض من حُقوقها»[1].

كما كانت لمُترجمنا الجيطالي أيضًا -بالإضافة إلى أُسرته الصغيرة المُتكوِّنة- كما ذكرنا- من زوجته وأولاده، عَلاقات مُحبَّة ومَودَّة مع ذوي رحِمِه الأوفياء، وقَرَابته المُخلصة في جيطال وغيرها في الجبل، وفي طرابلس الغرب، فقد ذكر مُترجموه حِرْصه عليهم، وشدَّة حُبَّه لهم وبرّه بهم، حتى أوصى لهم «بمائة درهم، وأرض له بكل ما فيها»[2]، وهو من الإحسان الذي عُرف به الجيطالي، ليس مع أقربائه فَحَسب، بل مع غيرهم من تلاميذه ومُريديه، ومع ذوي الحَاجَات وأهل الزَّمانات في عَصْره.

إنَّ ذلك الوضع الأُسري والاجتماعي الذي كان يتطلَّب الكثير من المال والإنفاق، مع ما عُرف به الجيطالي بالقول من أنَّه لا يجوز للمُعلِّم أخذ الأُجرة على عِلْمه، هو الذي حَمَله حملًا على الاشتغال بالأعمال الاقتصاديَّة

(1) تراجع وصيَّة الشيخ الجيطالي، المُسمَّاة «تذكرة النسيان، وأمان حوادث النسيان» ضِمن مخطوطات مكتبة العطف بالجزائر، ص317-319.

(2) **تذكرة النسيان وأمان حوادث النسيان**، ص317-319، نقلًا عن كتاب **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص59.

الحُرَّة في الغَراسة والزِّراعة، وتثمير الأراضي التي ورثها عن سَلَفه، كما دفعه إلى الصَّفق والتجارة في مُدُن الجبل الغربي، بل في مدينة طرابلس نفسها[1]، إلى أنْ غدا في هذا المَظْهر العَمَلي بعد طَوْر التحصيل والتكوين من العُلماء الأغنياء الأثرياء حَسب مقاييس عَصْره؛ أو إنْ شئت قُلت غدا عالمًا مَسْتور الحال مُكتفيًا بِرِزْقه، غير مُحتاج لغيره.

(4)

أمَّا المَظْهر الرَّابع الذي تقوَّمت به حياة العالم الفَقيه المُربِّي الشيخ أبي طاهر إسماعيل الجيطالي في طَوْره العَمَلي، فيتجلَّى فيما عُرف بين عُلماء عَصْره من المُشاركة الجادَّة في حَقْل التأليف والتصنيف؛ إذ لم يقصر الجيطالي جهوده على مُجرَّد التدريس والتعليم، والوعظ والتوجيه فَحَسب، بل اختار مَنْحى التدوين والكتابة، والتحرير والتحبير، واستغلَّ جميع ما جَمَعه وقمَّشه ودوَّنه في كُتبه ليكون مادَّة للإقراء في حَلقات الدَّرس، وزادًا لوعظه وإرشاده، فبرز بذلك في الجانبين، وعُرف بالتقدُّم في المَجَالين، على خِلاف غيره من العُلماء الكُثُر في القديم والحديث الذين اكتفوا بمُجرَّد الإقراء والدَّعوة دون التأليف، والتدريس والوعظ والتصنيف.

ومن الإنصاف القول هُنا إنَّ هذه المزيَّة مزيَّة التأليف والتصنيف التي عُرف بها الشيخ الجيطالي في طَوْره العملي، إنَّما ترجع إلى مواهب هذا الشيخ، وملكته الراسخة في شخصيَّته القادرة على كِتابة النثر والتأليف، وعلى التصنيف الجيِّد، كما يرجع فضلها أيضًا إلى مَدْرسة شيخه المُربِّي عيسى الطرميسي التي غذت في مَلَكات تلاميذها الأقران النُّجباء من أمثال أبي ساكن عامر الشماخي (ت 729هـ/ 1389م) وأبي زكريا ابن أبي العز[2]، ومنهم الجيطالي وغيره حُب الكتابة والتأليف والتدوين، ونمَّت فيهم الإحساس بِقِيمة

(1) م.ن.، كتاب **السير**، 2: 196.
(2) كتاب **السير** للشماخي، 2: 193.

التصنيف، إلى أنْ غدا -كما ألْمَحَت كُتب التاريخ- في طليعة زملائه تأليفًا وتصنيفًا[1].

واللَّافت في تآليف الإمام الجيطالي أنَّه جَمَع في ألفافها بين الكَثْرة والوفْرة من جِهَة، وبين التنوُّع وتعدُّد الاهتمامات والجَوْدة من جِهَة أُخرى، ونحن نجتزئ في هذا المقام بمُجرد ذكر أسماء هذه المؤلفات المخطوطة والمطبوعة، وما يتَّصل بها من معلومات، على أنْ نعود بعد ذلك إلى تفصيل القول في وصف بعضها؛ فمن تآليفه المَشْهورة:

1 - **أجوبة الأئمة**: قال الأُستاذ خضير بن بكير بابا واعمر عن هذا العمل التأليفي: «جَمَع فيه الجيطالي أجْوبة الأئمة وفتاويهم في عُصُور مُختلفة، ورتَّبها في ثلاثة أجزاء، ولا تخلو من بعض تعليقاته وتقديماته، وتوجد بعض النُّسخ الخطيَّة منها في جربة»[2].

2 - **تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان**: وهي وصيَّة أهليَّة كتبها الجيطالي في تونس على الراجح، توجد منها نُسخة في مكتبة العطف بالجزائر[3].

3 - الحَجّ والمَنَاسك أو مَنَاسك الحَجّ: هذا الكتاب ألَّفه الجيطالي قبل تأليفه كتاب «قواعد الإسلام»، وهو كتاب في جُزأين، تحدَّث فيه عن فريضة الحَجّ وواجباتها وفُروضها وسُننها، وما يجوز فيها للحَاج في أداء مَنَاسكها، وما لا يجوز، والآداب الواجبة، والأعمال المُفسدة لهذه الفريضة[4].

4 - **حساب مسائل البيع والشِّراء**: تناول فيه الجيطالي حسب عُنوانه مسائل البيع والشراء حَلالها وحَرامها، وما يتَّصل بها من ذكر الحِساب ومسائله

(1) كتاب **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص76.
(2) كتاب **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص80.
(3) م.ن.، ص80-81.
(4) يُراجع في ذلك: **قواعد الإسلام**: ز، **وقناطر الخيرات**، 1: 4-5، **والإباضية في موكب التاريخ**، 2: 108.

الأربعة، والموازين والمكاييل والمَسَاحات، وقد طُبع الكتاب -كما ذكر- في المَطْبعة البارونية سنة (1305هـ/ 1889م)[1].

5 - **الرسائل والمكاتبات**: وهي رسائله الخاصَّة الأهليَّة والإخوانيَّة التي كتبها إلى ثُلَّة من أهله ومن عُلماء عَصْره، وشيوخ وقته في موضوعات شتى، قال الأُستاذ خضير بن بكير: «وتوجد نُسخ خطِّية منها في جربة»[2].

6 - **شرح النونيَّة**: ويقصد بالنونيَّة القصيدة النونيَّة، ذات قافية النُّون التي نظمها الشيخ العالم أبو نصر بن نوح الملوشائي من أعلام القرن السَّابع الهِجري في مسائل العقيدة، وقد نَهَض الإمام الجيطالي بشرحها، ولهذا الشَّرح نُسخ مُتعدِّدة في الجبل الغربي وفي جربة، وفي وادي مزاب بالجزائر[3].

7 - **عقيدة التوحيد**: هي رسالة موجزة كَتَبَها الشيخ الجيطالي بأُسلوب طلي ليُعالج بها قواعد في العقيدة الإسلاميَّة، وليُخاطب بها عُقول الناشئة، وقد طُبعت هذه الرسالة بغرداية في الجزائر سنة (1394هـ - 1974م)، وحقَّقها أُستاذنا الدكتور عمرو خليفة النامي في قنطرة الإيمان من كتاب «**قناطر الخيرات**».

8 - **الفرائض**: وهو كتاب في أحكام علم المواريث، قرَّب فيه مسائل هذا العِلْم ومباحثه من أفهام النَّاس، وقد قيل: إنَّه طُبع بالمطبعة البارونيَّة بمصر سنة (1305هـ/ 1887م)[4].

9 - **قناطر الخيرات**: وهو من أهم كُتبه، حيث تناول فيه مَقَاصد الشَّريعة، وأُصول تهذيبها وترتيبها، وقد قسمه الجيطالي -كما سنوضِّح- سبع عشرة قنطرة رآها تؤدي إلى الوصول إلى السَّعادة الأبديَّة، وقد طُبع الكتاب مَرَّتين[5].

---

(1) هكذا ذكر الأُستاذ خضير بن بكير، ونذكر أنَّ هذه المطبعة ظهرت في سنة (1325هـ/ 1907م).

(2) كتاب **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص78.

(3) م.ن.، ص76.

(4) كتاب **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص76.

(5) **قواعد الإسلام**: ز.

10 -**قواعد الإسلام**: هذا الكتاب مجعول لشرح مسائل العقيدة والفقه ويقع في جُزأين، وقد طبع سنة (1423هـ/ 2003م) بتحقيق العالم الشيخ عبد الرحمن عمر بكي[1].

11 -**قياس الجروح**: وهي رسالة صغيرة في فِقه الدِّيات والقَصَاص، ومَنَازل الجُروح قياسها، ومِقْدار مَغَارمها[2].

والذي لا خِلاف فيه أنَّ هذا القدر المُحترم من التآليف بكمِّه وكَيْفه، يؤكِّد لنا ما ألمحنا إليه من جدِّية الإمام الجيطالي، وحُسْن تصرُّفه في استثمار الأزمان والأوقات ضِمن هذا الطَّوْر العملي من حياته، ممَّا قَدَّمه إلى أنْ يكون عَلَمًا من أعلام جبل نفوسة، أو الجبل الغربي، بل من الأعلام البارزين في طرابلس الغرب حَسَب تسميات المؤرِّخين والجُغرافيين القُدامى (ليبيا) حديثًا، وما استحقّ به تسميات العُلماء والمُؤرخين له، إذ سُمِّي «الشيخ الحافظ العالم العامل المُحافظ» عند الشماخي[3]، و«الإمام الورع مُستجاب الدَّعوة» عند الشيخ أبي راس[4]، وله تحليات أُخرى رفيعة عند العُلماء والمؤرِّخين المُحدثين، سنأتي إلى ذكرها.

أُخريات حياته:

مَضَت أُخريات حياة هذا العالم الدَّاعية الجيطالي على ذلك النَّسق الرتيب الهادي الجامع بين التعليم والإقراء، والدَّعوة والنَّصيحة والوعظ، وغشيان الأسواق والأماكن العامَّة للتوجيه والإرشاد وتعليم النَّاس والعامَّة أُصول البيع والشراء، وتحذيرهم من الحرام والغش ووجوهه الظاهرة والخفيَّة حتى قال بعض ظُرفاء عَصْره: إنَّ الشيخ من حيث يَعْلم أو لا يَعْلم علَّم الكثير من التجار والفجار كيف يغشُّون من خِلال ما نص عليه من بيان أشكال الغشّ

(1) نَشَرته مكتبة الاستقامة سنة (1422هـ/ 2003م).
(2) تُراجع المراجع المذكورة سلفاً، فقد ورد فيها أنَّه ألَّف هذه الرسالة.
(3) **السير**، 2: 195.
(4) **مؤنس الأحبة في أخبار جربة**، ص76.

الظاهر والخَفي[1]، كما مَضَت حياته إلى جانب ذلك التدريس والتوجيه في القِيام بالإشراف على أراضي سَلفه الزراعية في جيطال، وفي غيرها من قُرى الجبل الغربي ومُدُنه، ومُتابعة رعايته لتجارته في الجبل ومدينة طرابلس.

وممَّا ذُكر متَّصلًا بأُخريات حياة مُترجمنا الجيطالي أنَّ حاكم مدينة طرابلس ولعلَّه محمد بن ثابت الذي ولي حُكم المدينة منذ سنة (730هـ/ 1329م) إلى سنة (750هـ/ 1349م)[2]، كان مع قاضيه الذي نجهل اسمه، مع جُملة من الشيوخ والأتباع يُناصبون الشيخ الجيطالي العَدَاء، ويُخالفونه في مذهبه في الدَّعوة والمُجاهرة بالحَقّ، فاستغلُّوا وجوده في مدينة طرابلس التي قَدِم إليها في شأن من شؤون تجارته، وعقدوا له مجلسًا للمُناظرة والمُفاتشة والمُناقشة في جُملة من مسائل الدِّين وقضايا الواقع، فبزَّهم الجيطالي بفضل عِلْمه، وقُوَّة عارضته، وإخلاصه إلى أنْ أقام الحُجَّة عليهم، ودحض أقوالهم[3]، بل تَمَادى عليهم، وزاد في إحراجهم حينما قرأ عليهم قول الله تعالى في مجلس الأمير محمد بن ثابت: ﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾[4].

وأخبرنا تاريخ الرجل أنَّ هذا الأمير المُستبد انتصر لقاضيه ولأعوانه بل لنفسه، فسارع إلى اغتصاب مال هذا العالم العامل، وسلب تجارته، وزجّ به في غَيابات سِجْنه[5]، وضيَّق عليه.

وفي الحقِّ أنَّنا لا نَدْري مَدَى الزمن الذي قضاه الشيخ إسماعيل الجيطالي في سِجن الأمير محمد بن ثابت في مدينة طرابلس، كما أنَّنا لا ندري ما لقيه فيه من صُنوف التضييق والعذاب، ولكن الذي نَعْلمه عِلْم اليقين فيه خِلال ما انتهى إلينا من أخباره في تلك المرحلة، أنَّه ضاق أشد الضِّيق بهذا السِّجن، وما لَقِيَه فيه من أذى وإهانة من حاسديه الذين وصَفَهم بالجَهْل

(1) كتاب **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص76.
(2) **ولاة طرابلس الغرب**، ص125.
(3) **الإباضية في موكب التاريخ**، 1: 352، **قواعد الإسلام**، ص9، **قناطر الخيرات**، 1: 3.
(4) المراجع نفسها، والآية من سورة الأنعام، من الآية: 148.
(5) المراجع نفسها.

وبالجَفَاء والجَهَالة[1]، وهو ما عبَّر عنه في طالعة «**شرح النونية**» الذي كتبه في تلك المرحلة أو بعدها بقليل: «لقد صَدَر عن صَدْر يُناجيه البلابل، وقَلْب تقلبه الأهوال، وفصل عن بديهة وارتجال، لا عن رويَّة واحتفال، مع ما يعتريني من وساوس الصُّدور، وما مُنيت به من أهل الحَسَد والجَفَاء، والجَهْل بالأُمور، ينظرون إلي شزرًا مساءً وصباحًا، ويتربصون بي ريب المنون غُدوًّا ورواحًا، ويأكلون لحمي أكلًا صراحًا، وينزفون عرضي غيبًا مراحًا -كما قال القائل- وإلى اللَّه المُشتكى والعويل، وعليه التكلان والتعويل في جميع ما يطرقنا من الحدثين، من انطماس مَعَالم الأديان، مع عدم المعوان، ومُقاساة أهل الزمان»[2].

وممَّا يدلنا على شِدَّة ما كان يَلْقاه الجيطالي في سِجْنه من المُكابدة والأهوال، والتضييق من حاسديه وخُصومه عهدئذ، ومُسارعته إلى كتابة قصيدة استصراخ، يستنجد فيها بأحمد مكي حاكم جربة وقابس، المُتوفَّى سنة (766هـ/ 1364م)[3]، ليشفع له عند أمير طرابلس لإطلاق سَرَاحه من السِّجن، ويبدو أنَّ أحمد بن مكي تأخَّر في النهوض بذلك في الوقت الذي سارع فيه أولاد أبي زكريا ابن مسور[4] إلى نَجْدته، وتحمَّلوا معه مالًا في إخراجه من سِجن طرابلس الغرب، وهو الموقف الذي جَعَله يطمس، بل يُمزِّق مدحيَّته في أحمد ابن مكي، ويُجيبه بالقول صَرَاحة حينما الْتقى به أنَّه لا يستحق مَدْحه، تلميحًا على تأخُّره في مُساعدته على الخُروج من سِجن طرابلس الرهيب وقتذاك، وما قام به الأمير محمد بن ثابت وأعوانه في تعذيبه.

والحَقّ أنَّنا لا ندري مع ما عَرفناه من بؤس هذا السِّجن الزمن الذي أمضاه الجيطالي في سِجْن هذا الأمير محمد بن ثابت، ويبدو أنَّه قد طال، كما أنَّنا لا ندري على وجه الدِّقة والتحديد الزمن الذي خَرَج فيه من غياهبه، ولكن الرَّاجح أنَّه عاد بعد خُروجه منه ناقمًا أشد النّقمة على الحاكم بن ثابت

(1) **شرح النونية** للجيطالي، 3: 306-307.
(2) **شرح النونية** للجيطالي، 3: 306-307.
(3) تُراجع ترجمته وأخباره في كتاب **ولاة طرابلس**، للطاهر الزاوي، ص127.
(4) تُراجع تراجمهم في كتاب **تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية**، ص90.

وقاضيه وأعوانه، بل امتدَّت نِقْمته وحَنقه إلى طرابلس الغرب التي رضيت هؤلاء الظالمين حُكامًا «ودعا عليهم بالشَّر، حتى قيل: ربّما كان استيلاء الفرنجة عليها سنة (795هـ/ 1392م) استجابة لهذه الدَّعوة»[1] ثم تختلف كلمة مُترجميه، فمنها ما يذهب إلى أنَّ الشيخ الجيطالي توجَّه من سِجنه مُباشرة إلى جربة في تونس، قال مؤلفو «**معجم أعلام الإباضيَّة**»: «وبعد خُروجه من السِّجن، قصد جزيرة جربة، ونزل بها، فاستقبله عُلماؤها بحَفَاوة، واجتمع حَوْله الطَّلبة في حَلقات للعِلْم وكان يُدرِّس ويُصنِّف في المَجْلس الواحد، وقد درس الفقه والآداب والشعر في مزغورة بجربة»[2].

ومنها ما يذهب إلى أنَّ الجيطالي عاد إلى موطنه ومَسْقط رأسه في «جيطال» أوَّلًا، حيث استقرَّ عددًا من السِّنين، ربَّما بلغت تسع سنين، أقرأ خلالها ودرَّس، وباشر فيها ما كان يُباشره في حياته العَمَليَّة قبل سِجنه من القِيام بالتدريس والدَّعوة والإرشاد، والإشراف الفِعْلي على تسيير أملاكه الزراعيَّة وتِجارته، ويبدو أنَّ الشيخ الجيطالي ابتُلي بالعَدَاوات والأَحْقاد من الراعي والرعيَّة، حيث اشتدت عليه نيران عَدَاوة حَاسديه والحَانقين عليه، ممَّا عرَّضه للمزيد من مُحاولات اغتياله[3]، وممَّا جعله يُفكِّر تفكيرًا جديًّا -حينما ضاقت عليه الأرض بما رحبت- في التخطيط لترك وطنه والرحيل عنه، وتحويل ماله، والتوجُّه إلى جزيرة جربة، التي استُقبل فيها استقبالًا حسنًا من أصحابه أولاد أبي زكريا بن أبي مسور[4]، ومن عارفيه من عُلماء المذهب الإباضي، ومن المُهاجرين الجيطاليين، ومن العامَّة الذين يُقدِّرون العُلماء فطاب له المقام فيها، وتحلَّق به الطَّلبة في رُبوع الجزيرة فقام -كما تقدَّم- بواجب تعليمهم وهدايتهم في الجامع الكبير، وظلَّ على ذلك العَطَاء إلى أنْ حانت منيَّته.

(1) **معجم أعلام الإباضية**، 2: 57.
(2) **معجم أعلام الإباضية**، 2: 57.
(3) **شرح النونية**، 3: 206-207.
(4) **تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية**، ص126-127، **مؤنس الأحبة في تاريخ جربة**، ص91.

وفاته:

ذُكرت في تحديد وفاة الشيخ أبي طاهر إسماعيل الجيطالي روايتان ذهب أصحابهما إلى ترجيح وفاته في سنيها، الأُولى رواية من قال إنَّ وفاته كانت في عام (737هـ/ 1336م)[1] وهي التي اعتمدها الشيخ محمد أبو راس، صاحب كتاب «**مؤنس الأحبة في أخبار جربة**» حيث قال: «انتقل الجيطالي إلى جربة، ونزل الجامع الكبير، وكان يُقرئ ويُصنِّف في المجلس الواحد إلى أنْ أتاه اليقين، وتُوفِّي سنة 737هـ، ودُفن بمقبرة الجامع»[2]، يُشير إلى الجامع الكبير في الحشان، ويبدو أنَّ هذه الرِّواية مرجوحة، وقد قلَّ من قال بها[3]، أما الرواية الأُخرى الراجحة، فهي القائلة بأنَّ وفاة الشيخ الجيطالي كانت بعد أكثر من عَشْر سنوات من تاريخ الرِّواية الأُولى، أي: في عام (750هـ/ 1349م) وهي التي رجَّحها الشيخ المؤرخ علي معمر حيث قال: «لقد عاش الجيطالي في القرنين السَّابع والثَّامن يملأ الدنيا عِلْمًا وحِكْمة، وخُلقًا ودينًا، وتوفِّي سنة خمسين وسبعمائة»[4].

كما تَبِعه في اعتماد هذا التاريخ الراجِّح من جاء بعده من الكُتَّاب من أمثال الدكتور عمرو خليفة النامي[5]، ومؤلفو كتاب «**دليل المؤلفين العرب**»[6]، والشيخ عبد الرحمن بكلي[7]، والأستاذ خضير بن بكير بابا واعمر[8].

أما موضع الاتِّفاق بين السابقين واللَّاحقين جميعًا فهو في المكان الذي توفِّي فيه الشيخ إسماعيل الجيطالي، حيث أجمعوا على أنَّ المَنيَّة قد أدركت هذا العالم الطرابلسي اللِّيبي أبا طاهر إسماعيل الجيطالي النفوسي في جزيرة جربة تونس، وأنَّه دُفن في مَقْبرة الجامع الكبير فيها.

---

(1) **مؤنس الأحبة في تاريخ جربة**، ص91.
(2) المصدر السابق نفسه، والصفحة.
(3) **الإباضية في موكب التاريخ**، 2: 111.
(4) **تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية**، ص127.
(5) قناطر الخيرات، تحقيق: القسم الأول قنطرة العلم والإيمان.
(6) **دليل المؤلفين العرب الليبيين**، ص86.
(7) في تحقيقه كتاب **قواعد الإسلام**، للجيطالي: ز.
(8) **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، ص57.

طبائع تآليفه:

من مظاهر التوفيق والسَّداد في سِيرة ومسيرة الشيخ العَلَّامة أبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي أنَّه كما وفِّق في التدريس والإقراء، وفي جانب الوعظ والتوجيه والإرشاد وأيضًا في جوانب حياته الاقتصاديَّة، وفِّق أيضًا في استثمار سَنَوات حياته في الكتابة والتدوين، بل في التصنيف والتأليف، فظهرت له -كما أسلفنا القول- آثار قَلَميَّة كثيرة ووفيرة، أثرى بها مكتبة مذهبه الاجتهادي المذهب الإباضي، كما أغنى بها قماطر المكتبة الإسلاميَّة بعامَّة، وذلك في الكُتب التربويَّة والتوجيهيَّة التي انتهت إلينا منه.

وقد أسْمَينا قبل قليل أسماء كتبه ومؤلفاته، ونؤثر هُنا أنْ نقف لاستجلاء طبائع بعض هذه المُصنَّفات، بل لدراسة ثلاثة كُتب منها هي وفق ترتيبها الألفبائي:

1 - **شرح النونيَّة.**

2 - **قناطر الخيرات.**

3 - **قواعد الإسلام.**

1 - شرح النونية:

النونيَّة في الأصل هي منظومة في مسائل العقيدة، وفي أحكام التربية الدِّينيَّة الإسلاميَّة، والتوجيه السلوكي، وفي الآداب التي تضمَّنتها الشَّريعة الإسلاميَّة، ونظمها العالم الإباضي الجليل الشيخ أبي نصر الملوشائي من أعلام القرن السَّابع الهجري، الرَّابع عشر الميلادي[1]، في واحد وثمانين ومائة بيت، وقد حَظِيت هذه المنظومة العَقْديَّة بَعَدَد من الشُّروح، منها شرح ناظمها الشيخ أبي نصر الملوشائي نفسه، وشرح الشيخ قاسم بن يحيى الويراني (ت 1073هـ/ 1662م) وشرح الشيخ يوسف المصعبي (ت 1187هـ/ 1773م) وشرح الشيخ

(1) تُراجع ترجمته في كتاب: **السير**، للشماخي، 2: 189، وكتاب **الإباضية في موكب التاريخ**، 2: 97.

عمر بن رمضان التلاتي (ت 1187هـ/ 1773م) وشرح الشيخ عبدالعزيز الثميني (ت 1223هـ/ 1808م)، وشرح الشيخ محمد بن إدريس (ت 1298هـ/ 1881م).

وقد كان من جُهود العالم اللِّيبي أبي طاهر إسماعيل الجيطالي في التأليف، والمُساهمة في كتابة الشروح التي اشتهر بها قرنه وزمانه، والقُرون التي تلته هذا الشرح المُطوَّل لنونيَّة بلديِّه الشيخ الملوشائي الذي يقع في ثلاثة أجزاء، والذي شرح فيه هذه النونيَّة شرحًا أدبيًّا ولغويًّا وشرعيًّاً جامعًا، وقد بيَّن الجيطالي في طالعة هذا الكُتب دواعي تأليفه وشرحه فقال: «إنِّي نظرت إلى قصيدة الشيخ الأفضل الفقيه الأجل أبي نصر فتح بن نوح، فوجدتها قد اشتملت على جُمل من الأُصول الدِّينيَّة، مع خُلُوِّها من التفسير، وشغف الطَّلبة في حِفظها من غير معرفة بِجُمل شرحها، مع إغفال الأوَّلين عن تلخيصها ليفهم عنهم المُتأخِّرون جُمل فنونها»[1].

وقد بيَّن الجيطالي أنَّ هذا التقصير الذي رآه من الأوَّلين في الكَشْف عن مُخبآت هذه النونيَّة، والتجافي من القُدامى عن القِيام بشَرْحها، وإظهار ما فيها من المسائل الدِّينيَّة، والقضايا العَقَديَّة، هو الذي حمله على التوسُّع في هذا الشَّرح، وإبراز ما اشتملت عليه النونيَّة الملوشائية من موضوعات مُهمَّة، قال الأُستاذ خضير بن بكير: «وإذا نظرنا إلى الشُّروح التي تناولت النونيَّة لوجدنا شرح الجيطالي أَوْسعها تحليلًا وعمقًا، وأسبقها زمانًا، وبالتالي يُعدّ الجيطالي أوَّل وأكبر شارح للنونيَّة»[2].

وهذا الكتاب شرح النونيَّة للشيخ الجيطالي «على عظم فائدته، وحُسن عائدته» لا يزال مخطوطًا في قماطر بعض بيوتات جبل نفوسة وفي جربة وغيرها، وقد أطلعني صديقي الأُستاذ صلاح مسعود الدبلي على مُصوَّرة هذا المَخْطوط، فرأيت فيها ما رأيته في تآليف مُترجمنا الشيخ الجيطالي من أبعاد العِلْم الصحيح، وأوضاح الورع والتقوى.

(1) شرح النونية.

(2) الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي، ص74.

2 - قَنَاطر الخيرات:

وهو من أشهر كُتب الشيخ إسماعيل الجيطالي ومن أظهر مؤلفاته، من حيث اتِّساع أبواب الكتاب وكَثرة فُصوله، ووفرة مادته وغزارة شواهده، وقد قسم المؤلف كتابه هذا على سبع عشرة قنطرة وقد عنى بالقنطرة معناها المُتداول والمعروف؛ أي: الجِسر الموصل الذي يعبر فوقه من مكان إلى مكان آخر، فقناطر الخيرات بذلك المعنى الجسور والمعابر الموصلة من الشرور إلى الخيرات، ومن المعاصي والنواهي إلى الطاعات والمبرّات.

فقد جعل القَنْطرة الأُولى قَنْطرة العِلْم الذي يخرج به صاحبه من الجهل والجهالة إلى معارج النور والهداية، ومن مباحث المؤلف في هذه القَنْطرة في الكتاب العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه، والكلام على العقل المُكتسب، والعقل الغريزي، وذكر الاختلاف في تفاوت مراتب العقل، ثم خلص إلى فضل العِلْم والعقل، والتعلُّم والتعليم في الكتاب والسُّنة، وما يجب على الإنسان أن يتعلَّمه كما تحدّث في هذه القَنْطرة على العِلْم والعمل، وفي بيان العِلْم الذي هو فرضُ عينٍ وفرضُ كفاية، وتكلّم بعد ذلك في علم الدِّين وطريق الآخرة، وحد الكلام وعُلوم الفلسفة، وطرق العلم وتقاسيمه، وخلص بعد ذلك إلى الحديث عن آداب المُتعلِّم والمعلِّم، والآداب الخاصَّة بهما، وعن أقسام العِلْم والعلماء السُّوء، والأخبار الواردة فيهم وبيان العِلْم المذموم، وأسماء العِلْم المحمود، وأسامي العُلوم الشرعيَّة، وبيان القدر المحمود منها.

وانتقل الكتاب بعد ذلك إلى القَنْطرة الثانية التي هي قَنْطرة الإيمان، وسائر قواعد الاعتقاد والتوحيد، وقد تناول فيها ما يتَّصل بمعرفة الله تعالى، والأدلة على وجوده، والحديث عن صِفاته وذاته وأفعاله، ثم انتقل إلى الحديث عن تصديق الرسول، وشرح بعض أسماء الشريعة، وما يتعلَّق بذلك، والإيمان وما يتَّصل بمقاماته ودرجاته، وتعريف الإسلام، وبيان الاختلاف بينه وبين الإيمان، وبيان معنى الكُفر والنّفاق والشُّكر، وانتهى بعد ذلك إلى ذكر نبذة من سيرة حياة النبي التي كتبها العلاء بن الحضرمي.

القَنْطرة الثالثة: قَنْطرة الصَّلاة ووظائفها.

القَنْطرة الرابعة: قَنْطرة أسرار الصَّوم وظواهره.

القَنْطرة الخامسة: في الزكاة المشروعة في الأموال.

القَنْطرة السادسة: قَنْطرة أسرار الحج.

القَنْطرة السابعة: في ذكر التوبة، وما تشمل عليه من الأبواب.

القَنْطرة الثامنة: قَنْطرة الدنيا وقد تضمَّنت هذه القَنْطرة الحديث عن ذم الدنيا ومدحها، وحقيقتها وتفصيل جُملة معانيها وهيئتها والتزهيد فيها.

القَنْطرة التاسعة: هي التي أسماها قَنْطرة الخَلْقِ، يعني الناس ومُعاشرتهم.

القَنْطرة العاشرة: سمَّاها الجيطالي قَنْطرة الشيطان، وقد تبيَّن فيها عداوته للإنسان ومُجاهداته، وذكر حيله ومُخادعته.

القَنْطرة الحادية عشرة: هي قَنْطرة النفس وقد فصل الجيطالي فيها القول في بيان التقوى وفي إلجام النفس، وذكر الهوى والقلب وفي الأمل وما يتعلَّق به، وفي بيان القناعة وذم الغضب وحقيقته وعلاجه، وفي كظم الغيظ وفضيلة الحلم كما تحدَّث من أمراض النفس عن مرض الحسد، وأسباب علاجه وعن البخل وذمه وعلاجه، وعن أخبار البخلاء وانتهى به القول بعد ذلك إلى الحديث عن فضل السخاء وذكر حكايات الأسخياء، وإلى الكلام عن الإيثار وفضله وعن فضيلة الرفق وحُسن الخُلق، وذكر الكذب، وخلف الوعد والغيبة والنميمة والسعاية وحِفظ اللِّسان، كما تحدَّث عن غضِّ البصر، وضبط الفرج عن الحرام، وحِفظ البطن، والحلال والحرام وما يتصل بهما.

القَنْطرة الثانية عشرة: سماها الشيخ الجيطالي قَنْطرة العوارض وقصد بالعوارض، ما يعرض للإنسان من أحداث قال: وفيه أربعة أبواب، أحدها: باب الرزق، والثاني: باب الأخطار أو الخواطر التي تخطر على القلب من شيء يخافه الإنسان، أو يرجوه أو يريده أو يكرهه، والباب الثالث: المصائب

والشدائد وكفايتها بالصَّبر، والباب الرابع في هذه القَنْطرة: القضاء من الله سبحانه وتعالى.

القنطرة الثالثة عشرة: قنطرة الخوف والرجاء.

القَنْطرة الرابعة عشرة: قَنْطرة العيادة.

القَنْطرة الخامسة عشرة: قَنْطرة القوادح في الطاعات، أي: ما يشينها ويضرّها، وذكر من هذه القوادح: الرياء والعُجب والكِبَر.

القَنْطرة السادسة عشرة: سمَّاها الجيطالي: قَنْطرة الحمد والشكر.

القَنْطرة السابعة عشرة والأخيرة من كتاب قَنَاطر الخيرات: أسماها المؤلف: قَنْطرة الاجتهاد فمن أمثلة تفكيره وطريقة عرضه وأُسلوبه المُستخدم في هذه القَنَاطر قوله فما جاء في القَنْطرة الأُولى.

ومن الحق القول: إنَّ كتاب «قَنَاطر الخيرات» يُعدّ كتابًا فقهيًّا وتربويًّا مفيدًا، وهو بلا ريب يُمثِّل مرحلة النضج الفكري لمؤلفه الإمام الجيطالي النفوسي الطرابلسي، بل يأتي في مُقدِّمة تآليفه من حيث العُمق والأهمِّية، وكان الباعث الأساس في تسمية صاحبه بغزالي المغرب، وحجَّة الإسلام فيه، وقد أصاب الشيخ الفقيه الداعية علي يحيى معمر حينما أثنى على هذا الكتاب وعلى مؤلِّفه الشيخ إسماعيل الجيطالي بقوله: «والجيطالي لو لم يقدم إلى المكتبة الإسلامية إلَّا هذا الكتاب لكان فيه الكفاية»[1].

3 - قواعد الإسلام:

تتمحْور مباحث هذا الكتاب المعدود من تآليف الإمام الجيطالي المُهمَّة والنافعة في ثلاثة مَحَاور وموضوعات أساسيَّة من أُصول الشريعة الإسلاميَّة ومقاصدها الكُبرى هي:

1 - بيان العقيدة الإسلامية الصحيحة، وأركانها الأساسيَّة.

(1) **الإباضية في موكب التاريخ**، 109: 2.

2 - بيان العبادات وأقسامها وشُروطها، ومُبطلاتها.

3 - الحديث عن حُقوق اللَّه، وحُقوق العِباد، والإبانة عن آداب السُّلوك الصحيح من الوجهة الشرعيَّة.

ففي المِحور الأوَّل من الكتاب، وهو مِحْور العقيدة، تحدَّث الإمام الجيطالي عن (معرفة اللَّه) وعن أدلَّة معرفته، وفيما يجب على العبد أنْ يعتقده نفيًا واستحالة، وتحدث في الفصل الثاني عن معرفة الرسول سيدنا محمد ﷺ وما جاء به من الحقّ، وتناول بعد ذلك مسألة قيام الساعة باعتبارها من مسائل العقيدة الصحيحة، واعتقاد كَوْن البعث والنشور بعد الموت من أُصولها، كما تناول الجيطالي في هذا الجانب العقدي قضيَّة الحِساب والثواب والعقاب ومسألة الاعتقاد في وجود الملائكة، وتصديق الأنبياء والرُّسل والكتب المُنزلة عليهم، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره باعتبار ذلك جميعًا من أُصول العقيدة الصحيحة، كما بيَّن المؤلف الجيطالي الفرق بين التوحيد والشِّرك، وما بين النفاق وغيره، وعرض لذكر الحِسبة أو الاحتساب، أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشُروطهما، ولذكر الخوف والرجاء اللَّذين يجب أن يكون عليهما المسلم، كما عرض لذكر ما يعرف عن فُقهاء المذهب الإباضي الذي يتعبَّد اللَّه به بالولاية والبراء، وما فيهما من تقاسيم، وقد فصل الشيخ الجيطالي القول في هذا الأصل العملي المعمول به في مذهبه، بل أطال التفصيل فيه، باعتباره من الأُصول المُعتمدة في المذهب.

وفي الباب الثالث من الركن الأول؛ تحدث مؤلف كتاب **قواعد الإسلام** الشيخ الجيطالي في موضوع المِلَل الست، وهي عند جماعة الإباضيَّة مِلَّة الإسلام، ومِلَل أهل الشرك وعَبَدة الأوثان كما تحدَّث عن أحكامها.

ومن الفصول التي احتواها كتاب «قواعد الإسلام» للجيطالي: فصل في معرفة العِلْم المفترض تعلُّمه، وفصل في العمل، وفي النية وتوابعها والإخلاص والورع، وفصل في أركان الدِّين الأربعة وهي: الاستسلام لأمر اللَّه، والرضا بقضائه المُبرم، والتوكُّل عليه، والتفويض له، وكُلها أُصول ترقى بعقيدة المسلم، وتزيد إيمانه.

أمَّا الرُّكن الثاني من هذا الكتاب **قواعد الإسلام** فإنه يشتمل - كما أسلفنا - على ذكر العبادات التي جاء بها الإسلام ليتعبَّد بها المؤمن ربه، وقد بدأ الجيطالي هذه العبادات بالحديث عن الصَّلاة ؛ لأنَّها الأساس «فَمَن أقامها أقام الدِّين، ومن هَدَمها فقد هدم الدِّين» وقد أورد في حديثه عنها ما فيها من السُّنن والآداب، وفصل فيها ككتب الفقه في المذاهب السنية الأُخرى بذكر ما يتَّصل بها من الوضوء والغسل والتيمُّم وما يتبع ذلك من أحكام الحيض والنّفاس، ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصَّلاة وأقسامها وفرائضها وسُننها وما يتعلَّق بها من الفضائل، والأوقات المنهي عن الصَّلاة فيها، كما عرض لسجود السهو، والإمامة، وأنواع الصَّلوات الأُخرى مثل صلاة الكسوف والاستسقاء وصلاة الجمعة... إلخ.

وعرض الجيطالي في هذا الركن المُخصَّص للحديث عن العِبادات لذكر «فرض الزكاة» وما يتصل به من الأحكام، وفصل فيه القول، وتلا ذلك تفصيل القول في فرض الصَّوم وأحكامه المُختلفة، وما يتَّصل به من رغيبة الاعتكاف، كما تحدَّث بشيء من التوسُّع عن العمرة والحَج، وما يتعلق بهما من أحكام فقهيَّة، وقد سبق القول إنَّ للإمام الشيخ الجيطالي رسالة مُستقلَّة في مناسك الحَجّ.

وخَتَم كتاب **قواعد الإسلام** برُكنين مُهمَّين: الأوَّل يتعلَّق بذكر الحُقوق ومظالم العِباد، والآخر يتعلَّق بالآداب التي يستحب مُراعاتها في الأكل والشرب وآداب اللِّباس والجِماع ومُعاشرة الخَلْق.

والحقُّ أنَّ كتاب **قواعد الإسلام** للشيخ أبي طاهر إسماعيل الجيطالي بأقسامه ومحاوره الثلاثة المذكورة كتاب مُفيد لكل مسلم، ويظهر لي أنَّه كُتب بإخلاص نيَّة، وصفاء طويَّة، وهو ما يجعلك إذا قرأته، وتأمَّلت فيه، تخلص إلى فوائد جمَّة في العقيدة والعِبادات والآداب الإسلاميَّة، وتستفيد منها بيسر وقد أصاب مُحقِّق الكتاب الشيخ الفاضل عبدالرحمن بن عمر بكلي حيث قال: «وإنك لتحس معي -أيها القارئ الكريم، عند تصفُّح الكتاب - بروح التأثير تغمرك بإخلاصها، وتستولي على مشاعرك بنزاهتها، تُقرّر لك الحقائق

واضحة، وتكشف عن أسرار العبادات جليَّة، فتبعث جوارحك لخير العمل، وأنت لا تشعر».

ويبدو أنَّ كتاب «قواعد الإسلام» للجيطالي قد حَظِي بهذا التقدير والتزكية من القديم، فكان موضع درس وبحث واستنساخ وليس في جبل نفوسة فَحَسب بل في مجالس العِلْم في جربة والجزائر وفي المَشرق أيضًا.

كما حشّى عليه الشيخ أبو ستة محمد بن عمر القضبي الجربي المشهور عند عُلماء المذهب الإباضي بـ «المُحشّي» وهو من عُلماء القرن الحادي عشر الهجري[1].

كذلك قام قطب الأئمة الشيخ محمد أطفيش[2]، باختصار وتلخيص كتاب **قواعد الإسلام** وحاشية الشيخ أبي ستة عليه وأسمى اختصاره، وتلخيصه «الذهبُ الخالص المنوَّه بالعلم القالص»[3].

وأثنى على الكتاب «قواعد الإسلام» للجيطالي ونوَّه بقيمته عدد من العُلماء المُحدثين، نَذْكر منهم الشيخ علي يحيى معمر رحمه الله الذي حلَّاه بقوله: «وقد ترك فيما ترك **قواعد الإسلام** ولا يقل هذا الكتاب روعة عن القناطر، وإنْ كان كتاب القواعد لم يعن بالناحية الفلسفيَّة للشريعة الإسلاميَّة وإنَّما عُنِيَ المؤلفُ فيه بالتحليل والتعليل والتدليل، ويُعتبر هذا الكتاب من أهمِّ المراجع في قواعد الإسلام الخمسة، وهو كتاب ضخم، قلَّ أنْ تجد في موضوعه مثله»[4].

والذي نستنتجه من قراءة هذين الكتابين: كتاب **قناطر الخيرات** في أجزائه الثلاثة الكبار، وكتاب **قواعد الإسلام** في جزأيه، أنَّ مؤلفهما الإمام

(1) **قواعد الإسلام**: ز.
(2) العلَّامة الشيخ محمد أطفيش من أعلام العلماء والمُصلحين في الجزائر في العَصْر الحديث.
(3) **قواعد الإسلام**: ز.
(4) **الإباضية في موكب التاريخ**، 315: 1.

الجيطالي قد كتبهما، وشارك بهما في علم ساد في القرنين السابع والثامن الهجريين، هو باب أو عِلْم الوصايا والزواجر والعِظَات، أو إن شئت قلت باب «الأدب التهذيبي» وهو الذي وصفته في كتابي **فُنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب** بالقول: «من أبلغ مضامين فُنون القول وأرقاها في التعبير والتأثير في الأدب العربي، وفي الآداب الإنسانيَّة أيضًا، لأنَّه يُعبِّر بجلاء عن نوازع وجدانيَّة عميقة وصادقة، وما فتئ الإنسان العارف الحكيم، يحس -منذ أنْ أوجده اللَّه في هذه المعمورة- بضرورة الانتفاع، والنفع بها وبوجوب نقلها إلى غيره، وبخاصَّة إلى من يعقبه ويرثه؛ ليفيد بعُصارة التجارب في الحياة الحافلة بتراكماتها المادِّية والمعنويَّة، والزاخرة بطبائع الناس ونفسياتهم وفلسفاتهم ورؤاهم المُختلفة، بل المُتضادة والمُتضاربة في الكثير من الأحيان تُجاه طُروحاتها ومعضلاتها»[1].

وقد كتب في هذا الأدب التهذيبي، أو أدب الوصايا والزواجر والعِظات الكثير من العُلماء والأُدباء وفُقهاء المذاهب الإسلاميَّة المُختلفة على نحو ما فَصَّلنا فيه القول في كتابنا المذكور، ونذكر في هذا البحث أنَّ مُترجمنا الشيخ العالم أبا طاهر إسماعيل الجيطالي، وهو من أكبر فقهاء المذهب الإباضي في القرن الثامن الهجري قد كتب هو الآخر في هذا النثر التهذيبي، وصيَّته الأهليَّة التي أشرنا إليها، كما كتب هذين الكتابين المُهمَّين: **قواعد الإسلام**، و**قناطر الخيرات** والمُلاحظة التي نودّ إبداءها في معرض دراسة طبائع هذين الكتابين، هي أنَّنا نذهب إلى أنْ يكون كتاب **قَنَاطر الخيرات** خصَّ به المؤلف طلبة العِلْم المُتقدِّمين في التحصيل العلْمي، الذين درسوا من قبل كتابه الأوَّل من حيث التأليف وهو كتاب **قواعد الإسلام** المُخصَّص للتدريس في المُستوى الأدنى، أي: أنّه يكون في الترتيب الدِّراسي والمنهجي أوَّلًا، ليأخذ الطلاب المُتقدِّمون بعده الكتاب الآخر **قناطر الخيرات**.

والتصوُّر الآخر الذي أذهب إليه أنْ يكون كتاب **قناطر الخيرات** وكتاب

(1) **فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب**، 66: 2.

قواعد الإسلام كلاهما كتابًا واحدًا، ولكن الكتاب الأوَّل وهو القناطر يُمثِّل الإبرازة الأخيرة للكتاب حَسَب مُصطلح القُدامى، بينما **قواعد الإسلام** يُمثِّل الإبرازة الأُولى والإبرازة الأخيرة تشكل -كما هو معروف- المُستوى المُتطوِّر والأرقى للإبرازة الأُولى.

وممَّا يقوِّي هذا التصوُّر اتِّفاق الكتابين «القواعد» و«القناطر» في أغلب الموضوعات المطروقة فيهما، وهي الموضوعات المُتصلة بأدب الوصايا والزواجر والعِظات، أو كما أطلق عليها بعض الباحثين المُحدثين «الأدب التهذيبي»، وإن كان كتاب **قناطر الخيرات** انفرد بتناول موضوعات جديدة، وتوسَّع في ذكر الشواهد النَّصيَّة من القُرآن الكريم والحديث والأشعار وما تقتضيه الإبرازة الأخيرة للكتاب من زيادة.

ومن المظاهر التي تؤكد نسبة هذين الكتابين إلى فنهما الأدبي السائد في القرن الثامن الهجري، عَصْر الجيطالي، المظهر الشكلي المُتمثِّل في مُراعاة أُصول هذا الفن وتقاليده، وبخاصَّة العناية بالتأنُّق فيما كان يُعرف بفن التحميد[1]، والعِناية بمظهر طالعة الكتاب والتآليف، والحق أنَّ هذا المظهر تجلَّى في طالعة كتاب «قناطر الخيرات» على تعدُّد أجزائه وكبره.

ومن المشابه المنهجية الجامعة بين «القواعد» و«القناطر» أنَّهما كانا معرضا لفكر مؤلفهما المُنفتح، ووجهته الإسلاميَّة الجامعة، التي تنطلق من منطلق المذهب الإسلامي الفقهي الاجتهادي «الإباضي» التي تتعبَّد به الجماعة في غير تعصُّب أو تحيُّز ضيِّق، ولكنها تفتح نوافذها على بقيَّة المذاهب الفقهيَّة الإسلامية الاجتهاديَّة الأُخرى التي يُسميها «قومنا» وينتفع باجتهادات أعلامها من العُلماء الفُقهاء الذين يسوق أقوالهم وآراءهم كما يسوق أقوال عُلماء مذهبه وآراءهم في غير حَرَج، ورحم الله أُستاذنا الدكتور عمرو خليفة النامي حيث قال: «مع الجيطالي، وفي جميع كتبه تلتقي بأئمة الإسلام، وفقهائه

(1) يُراجع في ذلك كتاب: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، وموارد البيان والدر الموشَّى وكتاب الصناعتين.**

المُخلصين، تلتقي بالغزالي والماوردي والمحاسبي والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ومالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم من الأئمة، يورد آراءهم فيما يعرض له من مباحث في دقَّة وأمانة، فإذا رأى خلافًا أبان عن أصله، وأوضح أسبابه، ثم اختار ما يبلغ عقله من الحقّ في ذلك»[1].

على أن خير ما يدلنا على هذا المظهر الرائع من تفتُّح وجدان الجيطالي، وبعده عن التعصُّب المَقيت، وقَبوله الحقّ من حيث أتاه، كما أشار الدكتور النامي رَحِمَهُ اللَّهُ قوله في بيان منهجه الفكري هذا الذي اتَّبعه في تآليفه: «وأنا أستغفر اللَّه من كل ما زلَّت به القَدَم وطَغَى به القلم في كتابنا هذا[2] وغيره من كتبنا، وإنَّما ألفناه من كتب شتَّى، وأكثره من كتب قومنا (غير الإباضيين) امتثالًا لقوله عليه الصلاة والسلام: «اقبل الحقّ ممَّن جاءك به حبيباً كان أو بغيضًا، ورد الباطل على من جاءك به حبيبًا كان أو بغيضًا»، واستخرجت العِلْم النافع من كل كتاب، ولم أهتبل بمؤلفه على خطأ كان أو صواب، ونقلت الحقّ المفهوم من بين الشوك والسّموم، إذ حجة اللَّه على الإنسان فَهم الحقّ وعلمه من أي لُغة سمعها أو لِسان»[3].

ومن المظاهر التي تجلو وحدة المنهجيَّة في الكتابين تساهل الشيخ الجيطالي كالإمام أبي حامد الغزالي الذي تأثر به وبكتابه (إحياء عُلوم الدِّين) في الإتيان بالشواهد الحديثية دون النظر إلى مراتبها ومُستواها، وقد سوَّغ الجيطالي هذا التساهل والترخيص بقوله: «إني إنَّما فعلت ذلك لحديث رأيته في آثار أصحابنا عن أبي عبيدة مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ وذلك أنَّه قال: بلغني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: من بَلَغه حديث في الرغائب والفضائل في العِلْم فاجتهد فيه، قال: فإنْ كان الحديث على نحو ما بَلَغه كان له أَجْران، أَجْر حِفظه الحديث، وطاعته فيه، وأَجْر عمله به، وإنْ كان الحديث على غير ما بلغه كان

(1) **قناطر الخيرات**، الجُزء الأول، بتحقيق الدكتور النامي، ص16.
(2) يشير إلى كتابه **قناطر الخيرات**.
(3) **قناطر الخيرات**، 3: 505، 566.

له أَجْره على نحو ما بَلَغه، لأنَّ اللَّه لا يضيع أَجْر المُحسنين فلا يذهب اجتهاده للَّه، ونصيحته لربِّه ما لم يكن اجتهاده في بِدْعة»[1].

أمَّا في مقام الموازنة بين ما استعمله الجيطالي من الشَّواهد في الكتابين «**القواعد**» و«**القناطر**» فإنَّنا نَلْحظ ما تميَّز به الكتاب الأخير من كَثْرة الشواهد الشِّعرية من لدن عَصْر ما قبل الإسلام إلى عَصْره في القرن الثَّامن الهِجري، والتي أيَّد بها مقامات القول في أغراض نَثْره التهذيبي، أو في زواجره وعِظَاته المُختلفة.

كذلك لا نَنُسى ذكر ما تَميَّز به الكتابان من رَوْعة الأُسلوب ووضوحه، فقد كُتِبا بأُسلوب لُغوي واضح مبين لا تصعيب فيه ولا غُموض ولا تطليس، وهو ما ينبغي أنْ يُحسب للجيطالي الأديب الفقيه، لأنَّه يدلّ من قريب عن ثروته اللَّفظيَّة النَّقيَّة، واللُّغويَّة الثريَّة، التي اكْتَسبها من غَزَارة مَحْفوظه من النُّصوص الأدبيَّة المُشار إليها سَلَفاً.

(1) نقلًا عن الشيخ عبد الرحمن بكلي في تقديم لتحقيق كتاب الجيطالي بقواعد الإسلام: ج.